هبة الله أبو القاسم ابن رواحة، أحد العدول[1]

بنى المدرسة الشَّافعية المجاورة لمدرسة الحنابلة بباب الفراديس، وأوقف عليها الأوقاف، وتوفي في رجب، ودفن بمقابر الصُّوفية.

السنة الرابعة والعشرون وست مئة

فيها عاد الأشرفُ إلى بلاده، وقَدِمَ رسول الإنبرور على المعظَّم بعد اجتماعه بالكامل، فطلب الفتوح، فأغلظ له المعظم، وقال: قُلْ لصاحبك: ما أنا مثل الغير، ما له عندي سوى السَّيْف.

وفي شعبان أمر المعظم الجمال عبد الله بن الحافظ عبد الغني أن يرتِّب «مسند الإمام أحمد» ـ رحمة الله عليه ـ على أبواب الفِقْه، فقعد في الكلَّاسة، ومعه جماعةٌ من المحدِّثين، منهم الشرف الإربلي، فرتَّبوه، فمات المعظم وهم على ذلك.

وحجَّ بالنَّاس من الشَّام الشجاع ابن السَّلار، ومن مَيَّافارقين الشِّهاب غازي بن العادل، وكان ثَقَلُه على ستّ مئة جمل، ومعه خمسون هجيناً، كلُّ هجين عليه مملوك، وجهَّزه الملك الأشرف جَهازاً عظيماً، وسار غربيّ الفُرَات على قرقيسيا وعانة والكبيسات والغمر والعين وشفاثا، وكلُّها قرى فيها عيونٌ جارية ونخل كثير، ومنها يجلب التَّمْر إلى الشَّام، وعلى كربلاء، فزار المشهد، ثم دخل الكوفة، وزار مشهد أمير المؤمنين علي، رضوان الله عليه.

وحجَّ بالنَّاس من العراق شمس الدين قيران مملوك الخليفة، وبَعَثَ الخليفة لشهاب الدِّين فرسين وبغلة وألفي دينار، وقال: هذه من مِلْكي، أَنْفِقْها في طريق الحج، وأوصى أمير الحاج بخِدْمته، وتصدَّق في مكة والمدينة، وعاد إلى العراق، ولم يَصِلِ الكوفة، بل سار غربيَّ الطريق التي سلكها، فكاد يَهْلِك ومن معه عطشاً حتى وصل إلى حَرَّان.

---

(١) له ترجمة في «المذيل على الروضتين»: ١/ ٣٩٠-٣٩١، وفيه تتمة مصادر ترجمته.

وفيها توفي

البهاء عبد الرحمن بن إبراهيم بن أحمد، أبو محمد المقدسي[١]

كان إماماً بمسجد الحنابلة بنابُلُس، ثم انتقل إلى دمشق، قرأ القرآن، وسَمِعَ الحديث الكثير، وسافر إلى بغداد والعراق، وكان صالحاً ورعاً، زاهداً، غازياً، مجاهداً، جواداً، سَمْحاً، وتوفي ليلة الجمعة ثامن ذي الحجة، ودفن بقاسيون عند أهله.

عيسى بن [العادل][٢] أبي بكر بن أيوب[٣]

الملك المعظم، العالم الفقيه، الفاضل المجاهد في سبيل الله، الغازي، النحوي، اللغوي.

[ذِكْرُ طرف من أخباره][٢]:

ولد بالقاهرة سنة ستٍّ وسبعين وخمس مئة، ونشأ بالشَّام، وقرأ القرآن، وتفقَّه على مذهب أبي حنيفة على جمال الدين الحَصِيْري[٤]، وحَفِظَ المَسْعودي، واعتنى بـ «الجامع الكبير»، وقرأ الأدب على تاج الدِّين الكندي، فأخذ عنه «كتاب» سيبويه، وشَرْحَه للسِّيرافي، و«الحُجَّة في القراءات» لأبي علي الفارسي، و«الحماسة»، وقرأ عليه «الإيضاح» لأبي علي حِفْظاً، وسمع «مسند الإمام أحمد» ـ رحمة الله عليه ـ بدمشق، وعلى ابن طَبَرْزَد أشياء من مسموعاته، وسمع «السِّيرة» لابن هِشام على ابن المُجْلي بمِصْر، وغير ذلك، وشَرَحَ «الجامع الكبير»، والرَّد على الخطيب، والعَرُوض، وله ديوان شعر، ومع تصنيفه العروض ما كان يقيم وزن الشِّعْر في بعض الأوقات، [فكنت أقول له: فيك ضرب من النبوة ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ﴾][٢] [يس: ٦٩]، وكان شجاعاً، مقداماً، كثير الحياء، متواضعاً، مليحَ الصُّورة،

---

(١) له ترجمة في «التكملة» للمنذري: ٣/ ٢١٢ـ٢١٣ ، و«تاريخ الإسلام»: (وفيات سنة ٦٢٤هـ)، و«سير أعلام النبلاء»: ٢٢/ ٢٦٩ ، و«العبر»: ٥/ ٩٩ ، و«المختصر المحتاج إليه»: ٢/ ١٩٤ ، و«ذيل طبقات الحنابلة»: ٢/ ١٧٠ـ١٧١ ، و«النجوم الزاهرة»: ٦/ ٢٦٩ ، و«المقصد الأرشد»: ٢/ ٧٨ ، و«تاريخ الصالحية»: ٢/ ٤٧٥ ، و«شذرات الذهب»: ٥/ ١١٤ ، و«المنهج الأحمد»: ٤/ ١٨٦ـ١٨٧ .

(٢) ما بين حاصرتين من (ش).

(٣) له ترجمة في «الكامل»: ٢/ ٤٧١ـ٤٧٢ ، و«التكملة» للمنذري: ٣/ ٢١٢ـ٢١٣ ، و«المذيل على الروضتين»: : ١/ ٣٩٧-٣٩٩ ، وفيه تتمة مصادر ترجمته.

(٤) في (ح): فخر الدين الرازي، وهو وهم، والصواب من مصادر ترجمته، وانظر ترجمته في «تاريخ الإسلام»: للذهبي (وفيات سنة ٦٢٤هـ)، فقد قال: وكان شيخه في الفقه جمال الدين الحصيري .

ضحوكاً، غيوراً، جواداً، حَسَنَ السيرة والعِشْرة، محافظاً على الصحبة والمودة، [وكان بالبلقاء رجل من بني مهدي يقال له نُضار، يشعر على عادة العرب، مدح المعظم بقصيدة يقول: [من الطويل]

حمى من اوهام الزمان علامه[1] عزيز إذا ما الدهر كر جفاه

فكان يتعجب من قوله: كرَّ جفاه][2].

وكان قد توجَّه إلى أخيه الكامل في سنة سبع أو تسع وست مئة، والكامل في الإسكندرية، فركب فرساً واحداً، ووصل من دمشق إلى الإسكندرية في ثمانية أيام، فخرج الكامل، فالتقاه، وترجَّلا، واعتنقا، وركب الكامل وبقي المعظم واقفاً، فقال له الكامل: بسم الله، اركب. فأشار إلى الفرس الذي كان تحته، وأنشد: [من الكامل]

وإذا المَطِيُّ بنا بَلَغْنَ محمدا[3]

فطرب الكامل.

وكان البهاءُ بن التقي على دار الزَّكاة، فقدم البَدْر بن المسجِّف الشَّاعر من الشَّرْق، ومعه قُماش، فعسفه ابن التِّنِّبي، فكَتَبَ إلى المعظم [يقول][2]: [من الوافر]

أيا ملكاً أبادَ عِداه قهراً وأحيا كلَّ منقبةٍ وفَضْلِ

ومن هو كالمسيحِ اسْماً وفِعْلاً ونصباً للحياة وجَزْمَ فِعْلِ

يكلِّفُني البهاءُ زكاةَ مال حرامٌ كلُّه من غيرِ حِلِّ

وكيف يجودُ بالزَّكوات من لا يحجُّ ولا يصومُ ولا يصلِّي

فَجُدْ بهباتِ ذلكُمُ فإني أجِلُّ زكاتكمْ عن مال مِثْلي

فكتب المعظم على رأسها: يؤخذ منه العُشْر، جعله بمنزلة الحَرْبي.

---

(١) لم أتبين معنى البيت.

(٢) ما بين حاصرتين من (ش).

(٣) هذا صدر بيت، وعجزه:

فظهورهن على الرجال حرامُ

وهو لأبي نواس قاله في الأمين محمد بن هارون الرشيد. انظر «وفيات الأعيان»: ٤/ ١٤، وهو في «ديوانه»: ص٥٧٥ ط. دار صادر.

وكان إذا خرج إلى الغَزَاة لا ينام إلا على جل الطرح، وزرديته مخدته، ولا يقطع الاشتغال بالقرآن والجامع الكبير وسيبويه، وكان دائماً يركب، فإذا نزل مَدَّ السِّماط، فإذا أكل النَّاس قضى الحوائج إلى الظهر، وكان في أيام الفَسْخ مع الفرنج يرتِّب النِّيران على الجبال من باب نابُلُس إلى عكا، وعلى عكا جبلٌ قريب منها يقال له الكرمل، كان عليه المنوِّرون، وبينهم وبين الجواسيس علاماتٌ، وكان له في عكا أصحاب أخبار، وأكثرهم نساء الخيالة، وكانت طاقاتهن في قبالة الكرمل، فإذا عَزَمَ الفرنج على الغارة فتحت المرأة الطاقة، فإن كان يخرج مئة فارس أوقدتِ المرأةُ شمعةً واحدة، وإن كانوا مئتين شمعتين، وإن كانوا يريدون قَصْدَ حوران وناحية دمشق أشارت إلى تلك النَّاحية، وكذا إلى نابُلُس، فكان قد ضيَّق على الفرنج الطرق إذا قصدوا جهة سَبَقَ إليها بعسكره، وكان يعطي النِّساء والجواسيس في كل فسخ جملةً كبيرة.

قال المصنِّف رحمه الله: فقلتُ له في بعض الأيام: هذا إسرافٌ في بيوت الأموال. فقال: أنا استفتيك، لما عَزَمَ الإنبرور على الخروج إلى الشَّام أراد أن ينزل عكا بغتةً، ويسير إلى باب دمشق، فبعث فارساً عظيماً وقال له: اخفِ مجيئنا إلى البلاد لنغير بغتةً، وكان بعكا امرأة مستحسنة، فكتبتْ إليَّ تخبرني، فبعثت لها ثياباً ملونة وعنبر ومقانع حرير، فلبستها، واجتمعتْ بالفارس، فدهش، وقال: من أين هذا؟ فقالت: من عند صديقٍ لنا من المُسْلمين، فقال: مَنْ هو؟ فقالت: الكريدي، فصلَّب على وجهه، وقام، فخرج من عندها، فما زالت تلك المرأة تتلطَّف بالفارس وأهاديه حتى صارت كتب الإنبرور تجيء إليه مختومةً، فيبعثها إليَّ، وأقول له يكتب ما أُريد، فلو لم أدارِ عن المسلمين جاء الإنبرور بغتةً، وساق من أهل الشام ومواشيهم وأموالهم ما لا يُعَدُّ ولا يحصى، فأنا أفدي المسلمين بالشيء اليسير، وأحفظ الخطير بالحقير.

وكان المعظم قد أمر الفقهاء أن يجرِّدوا له مذهب أبي حنيفة دون صاحبيه، فجرَّدوا له المذهب في عشر مجلَّدات، وسماه «التذكرة»، فكان لا يفارقه سَفَراً ولا حضراً، يطالعه دائماً، فكتب على ظهر كل مجلدة: أنهاه حِفْظاً عيسى بن أبي بكر بن أيوب، فقلتُ له: ربما يؤخذ هذا عليك، لأن أكبر مدرِّس في الشَّام يحفظ القدوري مع تفرُّغه،

وأنتَ مشغولٌ بتدبير الممالك تكتب خطك على عشر مجلَّدات أنك قد حفظتها! فقال: ليس الاعتبار بالألفاظ، وإنما الاعتبار بالمعاني، سلوني عن جميع مسائلها، فإن قصرت كان الصحيح معكم، وإلا فسلموا لي ما قلت.

[وحكى لي][1] سعد الدِّين مسعود والي الجولان [قال][2]: كنت والياً بالشَّوْبك، وكان بها راهبٌ منفرد في بعض الجبال، فجاءني كتابُ المعظَّم بنفيه، فنفيته، فغاب سنة، وجاءني بكتاب المعظم يقول: أعده إلى مكانه، وتوصَّى به. فبحثتُ عن قِصَّته وإذا به قد بَعَثَ به إلى البحر كشف له أخبار الإنبرور على وَجْهها، وإنما نفاه لئلا يتَّهم فيتأذَّى، وأطلق له أرضاً يعيش منها، وأعطاه مئة دينار.

وقال المصنّف رحمه الله: لما قدم خالي أبو محمد يوسف إلى دمشق سنة ثلاثٍ وعشرين بخِلْعة الخليفة كان رسول الخوارزمي قد سبقه بيومين، ومعه خِلْعة الخوارزمي وفرسه وحربتان، وبلغ خالي، فقال لي: أبصر أيش يعمل، إنْ لبس خلعة الخوارزمي قبل خِلْعة الخليفة كان وَهْناً علينا. فكتبتُ إليه ورقة أعرِّفه ما يجب من طاعة الإمام، وفي جملة ما قلت: إن خالي قد سألني في هذه القضية، فَبَيِّضْ وَجْه هذه الشَّفاعة، وكلاماً هذا معناه، فكتب إليَّ: السمع والطَّاعة، مهما أمرت ما أخالف.

وأصبح فَلَبِسَ خِلْعة الخليفة ساعةً، وأعطاها للملك الجواد، فركبتُ بعد يومين لأشكره، فوجدته عند مشهد القدم، وقد رجع التسيير، فبينا هو يحدِّثني لاحت غبرة من ميدان الحصى، فقال: فلان الدِّين تقدم، فلي إليك شغل، وهذا خالك أريد أن أضيفه. وكان إلى جانبي جماعةٌ من الأعيان، فساقوا بين يديه، وشَرَعَ يحدِّثني، ووصل خالي، فَسَلَّم عليه، وسقنا إلى تحت القلعة فقال: لي شغل، فبالله ادخل معنا، واقعد ساعة. فدخلتُ، وعمل سماطاً عظيماً، فلما أكل خالي وخرج، وتفرَّق النَّاس، وأذن الظهر. فقلتُ: أيش قعودي؟ فقال: وأيش تَمَّ من الحوائج؟ قلتُ: فأنت من مشهد القدم تقول: تقدَّم، وتقول السَّاعة: وأيش تمَّ من الحوائج؟ فقال: هذا وأنتَ بغدادي! ما أردتُ إلا أن يرى خالك منزلتك عندي، فيحكي للخليفة ذلك. فدمعت عيني، وقلت: حرامٌ عليَّ صحبة غيرك.

---

(١) في (ح): وقال سعد الدين...، والمثبت ما بين حاصرتين من (ش).

(٢) ما بين حاصرتين من (ش).

ولما عاد خالي من مصر وقد جاءت كُتُبُ الخوارزمي يعتبه على لبس خِلْعة الخليفة، فخاف، وقال: غداً يدخل خالك من مِصْر. قلتُ: وأين ينزل؟ فقال: أين أراد. فقلتُ: الله، الله لا تغتر بالخوارزمي فما يدوم، والخلافة في بني العَبَّاس باقية، ومعاداة الخلفاء ما هي هيِّنة. فأنزلهم، وأكرمهم، وخَلَعَ عليهم، وخرج جاء إلى حماة، فجاءته وفاةُ الظَّاهر بها.

ولما توقف النَّاس عن الخروج إلى الغَزَاة كَتَبَ إليَّ بخطه كتاباً يقول فيه: قد عرفتُ عزيمةَ الأخ التي جَرَّدها في سبيل الله ابتغاءً لرضاه، وشكرتُ ما يقصد من المساعي في ذات الله ويتوخَّاه، فليقدِّم حضوره إلى أخيه، ومحبِّه المشار إليه، ليقوم من خدمته بما يجب عليه.

وكان يحبُّ الفقهاء، ويحرِّضهم على الاشتغال [بالعلم][1]، فيقول: مَنْ حفظ نصَّ «الجامع الكبير» للكرماني أعطيته مئة دينار، ومن حفظ «الإيضاح» لأبي عليٍّ في النحو أعطيته ثلاثين ديناراً، فحفظ الكتابين جماعة، ووفى لهم بما شرط.

ذِكْرُ وفاته:

كان قد جهَّز العساكر إلى نابُلُس خوفاً من اتِّفاق الكامل مع الإنبرور، ومرض في نصف شَوَّال، وكان عنده رُسُل الخوارزمي، [فحكى لي نجم الدين بن سلَّام[2] قال][1]: وقد غَرِمَ عليهم في تسعة أشهر تسع مئة ألف دِرْهم، واشتدَّ مرضه، وأصابه ذَرَبٌ عظيم بحيث إنَّه رمى قطعةً من كبده ومصراناً، وكَثُرَتِ الأقوالُ أَنَّه سُقي السُّمَّ، واتُّهم به جماعة، وربك الخبير.

قال المصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ: وآخر عهدي [به][1] ليلة الجمعة تاسع [عشرين][1] ذي القَعْدة دخلت عليه آخر النَّهار، وعنده ولده الملك النَّاصر داود ،وكريم الدين الخِلاطي، ويعقوب الحكيم وقد تغيرت أحواله، وطلع الموتُ في محاسن وجهه المليح، فبكيتُ، فقال: حاشاك حاشاك. وتحته طراحة خفيفة بندقي ومخدة ولحاف من جنسها، وعلى رأسه كوفية، وعند رأسه صينية اسباذروه فيها تراب، فقلتُ لكريم الدين: ما هذه؟ قال: يتيمَّم لكلِّ صلاة، وكان المعظم يقول: والله ما فاتتني صلاةٌ قط. قال كريم الدين بعد ذلك: باتَ الليلة التي مات في صبيحتها ساهراً، فغفت عينه قبل الفجر، وكان قد قام قياماً عظيماً، ففتح عينيه وقد كادتِ الشمس أن تطلع، فلم يقدر على التيمُّم، فصلَّى

(١) ما بين حاصرتين من (ش).

(٢) ستأتي ترجمته في وفيات سنة (٦٤٢هـ)، وستأتي بعض أخباره في حوادث سنة (٦٣٦هـ).

بالإيماء، وكان [دائماً يقول: ما أظن يدخل ملك إلى الجنة، و][(١)] يقول: الموتُ خيرٌ من الحاجة إلى النَّاس، ويقول: قد صَحَّ عن النَّبي ﷺ أنه قال: «لا يجتمع غُبارٌ في سبيل الله ودخانُ جهنم في منخري عبد أبداً»[(٢)]. وكم في منخري من ترابٍ في سبيل الله.

وتوفي ثالث ساعة من نهار الجُمُعة أَوَّل يوم من ذي الحِجَّة، وغَسَّله النَّجْم خليل، وكريم الدِّين يَصُبُّ عليه، وكان قد أوصى أن لا يدفن في القلعة، ويخرج إلى الميدان، ويظهر تابوته، ويصلِّي عليه المُسْلمون، ويحمل إلى قاسيون، فيدفن على باب تُرْبة والدته تحت الشجرة، فلم تنفذ وصيته، ودُفِنَ في القلعة، ثم أُخرج بعد ذلك بمدَّة[(٣)] لما ملك الأشرف دمشق على حال غير مرضي، بين يديه نصف شمعة، والغرز خليل معه، [[(٤)]وبلغني أَنَّ الحمالين طلبوا ما يربطوه به على النعش، فقيل لأحدهم]: اربطه بعمامتك. ودُفِنَ مع والدته في القُبَّة عند الباب، وفيها أخوه المغيث، وعمل له العزاء ثلاثة أيام في جامع دمشق.

وجرى على الرَّعية [في وفاته][(١)] ما لم يجرِ عليهم عند موت أحد من الملوك، [رأيت بنات البيوت اللواتي لم يخرجن قط من خدورهن من أوائل الليل يأتين إلى تحت القلعة، وقد شققن ثيابهن، ونشرن شعورهن، ومعهن الدرادكه فيلطمن عليه، ثم يمشين في الأسواق، ويلطمن إلى الصباح، أقمن على ذلك شهراً، وكذا في الميادين طول النهار، وتكلمت أول يوم في عزائه، فغلبني البكاء،][(١)] وكان محسناً إلى الرَّعية، ذاباً عن حريمهم، رفيقاً بهم، يعرف صغيرهم وكبيرهم.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: وكان يحضر مجالسي بالقُدْس وبجامع دمشق، فيبكر، ويقعد عند المنبر الذي عند باب المشهد بين العامة، ولما رَجَعَ من الحجِّ في سنة إحدى عشرة وست مئة

---

(١) ما بين حاصرتين من (ش).

(٢) بنحوه عند أحمد في «المسند» (٧٤٨٠)، وهو صحيح بطرقه وشواهده.

(٣) كان ذلك في ليلة الثلاثاء، مستهل محرم سنة (٦٢٧هـ)، انظر «وفيات الأعيان»: ٣/ ٤٩٥ .

(٤) في (ح): وطلب بعض الحمالين ما يربطه به على النعش، فقيل له: اربطه بعمامتك، والمثبت ما بين حاصرتين من (ش).

حضر مجلسي بجامع دمشق، فأنشدتُ قصيداً لجدِّي، أَوَّلها: [من الطويل]

سلامٌ على الدَّار التي لا نزورُها ... على أَنَّ هذا القلب فيها أسيرُها
إذا ما ذكرنا طِيْبَ أيامنا بها ... تَوَقَّدَ في نَفْسِ المشوقِ سعيرُها
رحلْتُمْ وفي سِرِّ الفؤادِ ضمائرٌ ... إذا هَبَّ علويُّ الصَّبا يستثيرُها
أتنسى رياضَ الغَوْرِ بعد فِراقِها ... وقد أخذ الميثاقَ منكَ غديرُها
مَحَتْ بعدكُمْ تلك العيونُ دموعَها ... فهل من دُموعٍ بعدها نستعيرُها
تجعِّدُهُ مرُّ الشمالِ وتارةً ... تغازله كَرُّ الصَّبا ومرورُها
ألا أَيُّها الرَّكْبُ الحجازيُّ بَلِّغوا ... رسالةَ محزونٍ جَوَاهُ سطورُها
إذا كَتَبَتْ أنفاسُهُ بعضَ وَجْدِهِ ... على صَفْحة الذِّكْرى محاه زفيرُها

إلى هنا لجدِّي. قلتُ: [من الطويل]

سقى الله أياماً مَضَتْ ولياليا ... تَضَوَّع رَيَّاها وفاحَ عبيرُها
لياليَ بِتْنا نَجْتلي للمُنَى بها ... عرائسَ حبَّاتُ القلوبِ مهورُها
فياحبَّذا جَنَّاتُها وهْيَ غضَّةٌ ... ويا حبَّذا من سائر النَّاس حُورُها
ويا حبَّذا للنَّفْس والعِيْس عَزْمةٌ ... يكون إلى عيسى المليكِ مصيرُها
هو الشَّمْسُ إنْ غابتْ ففي كلِّ ناظرٍ ... يقينٌ وعِلْمٌ أَنْ سيشرقُ نورُها
تجلَّتْ به الدُّنيا وطالت بفَضْلِهِ ... وإحسانِهِ أجيادُها وصدورُها
له حَقُّها إذْ كان عالَمَ سِرِّها ... وللنَّاس منها زُورُها وغُرورُها
كريمٌ إذا ما جئتَ ترجو أياديَاً ... له فاضَ مِنْ قبلِ السُّؤالِ غزيرُها
فما تُدْرِكُ الأشعارُ بعضَ صفاتِهِ ... ولو حاكها بشَّارُها وجريرُها
لِيَهْنِك يا عيسى مساعٍ تضاعَفَتْ ... لديكَ بإجزاءِ الإله أجورُها
سَبَقْتَ بها الزُّهَّاد إذ طُويتْ بها ... لك الأرضُ في شِبْرٍ وهانَ عَسِيْرُها
وقفتَ بها للحجِّ وِقْفَتَك التي ... وقفتَ ونارُ الحربِ بادٍ سعيرُها
وكنت إمامَ المَوْقِفَيْن عظيمةٌ ... مساعيك عند الله جَمٌّ غفيرُها
فلا زلتَ تكسو الدِّين حُسْناً ورَوْنَقاً ... وتُوضحُ مخفيَّاتِهِ وتنيرُها
ودانتْ لك الدُّنيا ودُمْتَ مليكَها ... ولا رجعتْ إلا إليكَ أمورُها

ولما قلتُ: وكنتَ إمام الموقفين عظيمة مساعيك، وعنيت موقف الجهاد والحج بكى، وقال: مَنْ أنا حتى يكون لي مساعٍ؟ وزاد بكاؤه، فخفتُ عليه لا يفتضح بين العامة، فقلتُ: لا ينسى الله لك مواقفك في رضائه، وسهرك الليالي في جهاد أعدائه.

ذِكْرُ ما بنى [من المدارس وغيرها][1]:

بنى مدرسةً بقاسيون، ودفن فيها والدته، وأخاه المغيث، ومدرسةَ القُدْس، ودار المضيف، واعتنى بأرضِ الحجاز، فبنى حَمَّامين بمعان للرِّجال والنِّساء، وأقام لهم الضيافة عند رواحهم إلى مكة ومجيئهم، وأباحهم الحمامين، وذَرَعَ طريق الحجاز من باب الجابية إلى مكة، وحفر البرك والمصانع، وأوقف على ذلك ضياعاً من السَّاحل وعلى المدارس، ولو عاش لسار النَّاس إلى مكة بغير دليل، [وكان قد حجَّ في سنة إحدى عشرة على طريق تبوك والعُلا، ففعل ما ذكرناه في طريقه،][1] وكانت العُلا لبني صخر، وهي قلعة، فأخذها منهم، ورتَّب فيها جماعة، وعَمَرَ المساجد عند جعفر الطَّيَّار رضي الله عنه، وأقام الضِّيافات للزُّوَّار، وبنى سور دمشق، والطارمة التي على باب الحديد، والطَّيَّارة التي عند باب السِّرِّ المشرفة على دار الطُّعْم العتيقة، وبنى الخان على باب الجابية، وبنى الدَّار والقصر والقَيْسارية، وغير ذلك.

ذِكْرُ ثناء الخلفاءِ والملوكِ عليه:

لما قدم [خالي][1] محيي الدين بن الجوزي عليه سنة ثلاثٍ وعشرين وست مئة، قال [لي][1]: قد أُمرت من الدِّيوان ألَّا أخاطبه إلَّا بشهريار الشَّام، وهو الملك.

[[2]ولما اجتمعت بالملك الظاهر في سنة اثنتي عشرة وست مئة قال لي:] والله هو واسطة العقد، وعين القلادة، ولولا هِمَّتُه، وأنَّه مشغولٌ بجهاد الأعداء لما قَرَّ لي بحلب قرار.

وكان الملك الكامل[3] يقول: وهل أنبت الشَّعْر على رؤوسنا إلا الملك المعظم، [وقال لي الكامل في مصر:][1] ومن حفظ عليَّ البلاد، وأحياني بعد الموت غيره. يشير إلى نوبة ابنِ المَشْطوب.

---

(١) ما بين حاصرتين من (ش).

(٢) في (ح): وقال الملك الظاهر صاحب حلب عنه...، والمثبت ما بين حاصرتين من (ش).

(٣) سلف أن قائل ذلك هو الأشرف، انظر ص ٢٧٩ من هذا الجزء.

وكان الأشرف يقول: الله بيني وبين الساعة التي ولدت فيها. ومعناه أَنَّه ولد قبل المعظم بليلةٍ أو أكثر، فكان يقف في خدمة العادل فوق المعظم على ما جرت به عادتُهم في كبر السِّنِّ.

ذِكْرُ طَرَفٍ من شجاعته: قد ذكرنا أنه [التقى بالفرنج على القيمون، وقتل منهم مئة فارس، وأسر منهم مئة فارس، ودخل بهم القدس منكسة أعلامهم، و][1] كسر الفرنج غير مَرَّة، وأخرب قيسارية [والنقر ودعوق][1] وحصوناً كثيرة في السَّاحل، وكان بالغَوْر حرامي يقال له: قنديل، معه مئةُ رجل، فكان يقطع الطَّريق بين بَيْسان وأريحا.

قال المصنف: فحكى لي المعظم، قال: بلغني أَنَّ الفرنج قاصدين القُدْس، فخرجتُ من دمشق بعد الظُّهر، وما معي غير ركبدار وقلاوز مملوكي، وقلتُ للجماعة: اتبعوني، وسقتُ، فبتُ بالمطوق، وقمتُ في الليل، فأصبحت ببَيْسان، فتغديت، وساق معي والي بَيْسان، وأُنسيت قنديل، فسقتُ أريد أريحا، فبينا أنا في غدرة بَيْسان، وإذا بقنديل قد خرج، ومعه رجاله، ولم يكن معي عشرة خيالة، فوقفتُ وصحت فيه: والَكْ أنت قنديل؟ قال: نَعَمْ. وبيده قوس، لو ضرب سهمه في الجبل لنفذ فيه، فقلتُ لبعض المماليك: انزل إليه، فنزل، فقلتُ: اكتِفْهُ بوتر قوسه، فكتَّفَه، وانهزمَ أصحابه، وأخذتُ وتر القوس بيدي، وسقتُ إلى قراوى، وهو ساكتٌ، فالتقاني رؤساء قراوى وهو معي، فخافوا، ونزلتُ عندهم، وقلتُ لهم: هذا برؤوسكم، ما أعرفه إلا منكم في القُدْس. ونمتُ عندهم إلى السَّحَر، وركبتُ، فدخلتُ القُدْس، وكانت عادته أن يبيت من دمشق إلى القدس في الطريق ليلة واحدة وبعض أخرى، فلما كان من الغد جاؤوا وهو معهم، فقلتُ: [اخرجوا و][1] اشنقوه. وكان شاباً مليحاً شجاعاً، فقال: يا خوند، عوض ما تشنقني ما تستبقيني أحمي بلادك، وأجاهد الكُفَّار بين يديك؟ [قال:][1] فرقَّ له قلبي، وخلعتُ عليه، واستحلفته، وأطلقته، فنزل الغَوْر، فأقام فيه الخفراء، فأمنَتِ الطرق، وحُفظت الأموال، ولما نزلتِ الفرنجُ على الطّور جاهدهم جهاداً عظيماً، وحفظ الباب، فلما رأى الغلبة خرج إليهم، فقتل منهم جماعةً، ثم استشهد، [رحمه الله][1].

(١) ما بين حاصرتين من (ش).

ذِكْرُ أولاد المعظم:

[كان له ثلاثة أولاد من الذكور][1] النَّاصر داود، والمغيث عبد العزيز، والقاهر عبد الملك، ومن البنات تسع، وقيل: إحدى عشرة.

السنة الخامسة والعشرون وست مئة

فيها نزل جلال الدين الخوارزمي على خِلاط مرَّةً ثانية، وهَجَمَ عليه الشِّتاء، فرحل عنها إلى أذربيجان، وخرج الحاجب علي من خلاط بالعسكر، فاستولى على خُوَي وسَلَمَاس ونَقْجوان، وتلك النَّواحي، وأخذ خزائن الخوارزمي وعائلته، وعاد إلى خلاط، فقيل له: بئس ما فعلتَ، وهذا يكون سبباً لهلاك العباد والبلاد. فلم يلتفت.

وفيها نجزت مدرسة الركن الفلكي بقاسيون، وذكر فيها ملك شاه الدرس.

ووصل عماد الدين بن الشيخ من مِصْر، ومعه ابن جلدك بالخِلَع والتقليد إلى الملك الناصر داود، وأقام ابن الشيخ بدمشق.

وفي ربيع الأول كانت الوقعة على باب صور بين العزيز عثمان وصارم الدين التِّبْنيني والفرنج، كمنوا لهم قريباً من صور، فلما تعالى النهار خرج الفارس والرَّاجل بأغنامهم ومواشيهم، وخرج عليهم المسلمون، فقتلوا وأسروا منهم سبعين فارساً، وساقوا الجميع، ولم يسلم من الفرنج سوى ثلاثة أنفس، [وكانت وقعة عظيمة][1].

وحجَّ بالنَّاس من الشَّام علي بن السَّلاَّر.

وفيها توفي

عبد الرحيم بن علي[2]

ابن إسحاق بن شِيْث القاضي، جمال الدين، القُرشي، العالم الفاضل.

كأنَّ الله تعالى قد جَمَعَ له بين الفَضْلِ والمروءة، والكرم [والفتوة][1]، والإحسان إلى الخَلْق، ما قصده أحدٌ في شفاعةٍ فردَّه خائباً، وكان يمشي بنفسه مع النَّاس في قضاء

(١) ما بين حاصرتين من (ش).

(٢) له ترجمة في «التكملة» للمنذري: ٣/ ٢١٧، و«المذيل على الروضتين»: ٢/ ٦، وفيه تتمة مصادر ترجمته.